النقد المنهجي عند رينيه ديكارت

يمثل رينيه ديكارت وهو فيلسوف فرنسي ولد عام 1596 من عائلة نبيلة أحد أهم الفلاسفة الذين تركوا بصمة عميقة في تاريخ الفلسفة الحديثة. وقد اشتهر بمنهج الشك وهو منهج نقدي ثائر على طرق المعرفة السابقة، وقد سعى من خلاله إلى التنظير لكيفية بناء معرفة يقينية في عالم مليء بالشك. لقد انتقل ديكارت إلى هولندا حيث قضى أكثر من عشرين سنة من حياته هناك، فانتشرت أفكاره الجريئة في الجامعات الهولندية ، مما تسبب في حملة عنيفة شنها ضده رجال الدين البروتستانيين فقصد بعدها استوكهولم، حيث توفي عام 1650م. اشتغل ديكارت في حقول عدة : في الفيزياء وفي علم بنيان العالم وفي الرياضيات حيث لم يكن فقط فيلسوفا يفكر ويتساء ، بل كان عالما تجريبيا يخوض ميادين العلوم الطبيعية والرياضية أيضا. في هذه المحاضرة، سنتناول مسالة الشك عند ديكارت، وأهمية هذا الفيلسوف في تأسيس الفلسفة الحديثة، وكيف أثر على التفكير الفلسفي والنقدي والعلمي على مر العصور .

"الشك المنهجي" اسم ديكارت الحقيقي:

يبدأ ديكارت رحلته الفلسفية بالشك في كل شيء، حتى في وجوده نفسه. يقول:" المعرفة اليقينة لا تأتي عن طريق الحواس – حتى ولا عن طريق العقل: فأنا أشك في الحواس ، لأنها خدعتني أحيانا ، ولعلها تخدعني دائما: كما أن أخطاء الاستدلالات العقلية ، تجعلنا نشك في صحة استنتاجات العقل."(1) إنه يشك في كل المعارف التي اكتسبها من الحواس، ومن التقاليد، ومن العلماء السابقين. هذا الشك المنهجي ليس شكًا مرضيًا، بل هو وسيلة للوصول إلى اليقين. فمن خلال الشك في كل شيء، يمكن لديكارت أن يكتشف الحقيقة التي لا يمكن إنكارها. وهو ينطلق بدءا من ثنائية "الروح والجسد من حيث أنهما جوهران مستقلان: مادي وغير مادي.يتمتع الجوهر غير المادي بصفة أساسية هي التفكير ، بينما يتميز الجوهر المادي بالامتداد" (2) وقد رفع ديكارت شعاره الشهير "أنا أفكر، إذن أنا موجود"(3) بوصفه الحقيقة الأولى أو الوحيدة التي يؤمن بها. وكانت هذه الفكرة هي نقطة الانطلاق لبناء منظومة فلسفية جديدة تؤكد على وجود الذات المفكرة، وعلى قدرتها على الوعي بالأشياء وعيا يسمح بفهمها على نحو أفضل.

قواعد المنهج الديكارتي:

بعد أن اكتشف ديكارت الحقيقة الأولى، وضع مجموعة من القواعد التي يجب اتباعها للوصول إلى المعرفة اليقينية. وتتمثل هذه القواعد في:

-**تقسيم المشكلة إلى أجزاء صغيرة** :يجب تقسيم أي مشكلة معقدة إلى مسائل بسيطة، ثم حلها بشكل منظم.

-**الانتقال من البسيط إلى المركب** :يجب البدء بحل المسائل البسيطة، ثم الانتقال إلى حل المسائل الأكثر تعقيدًا.

-**التحقق من كل خطوة** :يجب التحقق من صحة كل خطوة في عملية التفكير، للتأكد من عدم وجود أخطاء.(4)

لقد مثّل المنهج الديكارتي بهذه المنطلقات ثورة فعلية في الفلسفة الحديثة حققت مجموعة من الأهداف تحولت إلى مبادئ فكرية ويمكن إيجازها في الآتي:

-**بناء المعرفة على أسس يقينية** :سعى ديكارت إلى بناء معرفة قائمة على اليقين، بدلاً من الاعتماد على التقاليد السابقة أو السلطة المعرفية السائدة.

-**التأكيد على دور العقل** :أكد ديكارت على أهمية العقل في الوصول إلى الحقيقة، وجعله أساسًا للفلسفة.

-**التأثير على العلوم الطبيعية** :أثر المنهج الديكارتي بشكل كبير على تطور العلوم الطبيعية، حيث أصبح العلماء يعتمدون على الملاحظة والتجربة والتحليل المنطقي للوصول إلى نتائجهم.

ولم يقتصر تأثير ديكارت على مجالات الفلسفة والعلوم فحسب، بل امتد إلى مجالات أخرى مثل الأدب والنقد الأدبي. فمنهجه النقدي القائم على الشك المنهجي، والذي يهدف إلى الوصول إلى اليقين من خلال التحليل المنطقي، قد ترك بصمة واضحة على تطور النقد الأدبي حيث أسهم منهجه في تطوير أدوات جديدة لتحليل النصوص الأدبية. وذلك من خلال:

-**التشكيك في المسلّمات** :أحد أهم مبادئ المنهج الديكارتي هو التشكيك في كل ما هو مسلم به. في النقد الأدبي، وقدطبق هذا المبدأ من خلال التشكيك في التفسيرات التقليدية للنصوص، والبحث عن تفسيرات جديدة ومبتكرة.

-**التركيز على العقل والمنطق** :يدعو ديكارت إلى الاعتماد على العقل والمنطق في الوصول إلى الحقيقة، وانعكس ذلك على الممارسة النقدية وتحليل النصوص الأدبية ، فصار الاعتماد على الأدلة النصية وتحليلها منطقيًا هو السبيل الوحيد لإرساء تفسيرات مقنعة.(5)

وقد أدى الإلحاح على هذه المبادئ إلى:

-**ظهور النقد الجديد** :ساهم المنهج الديكارتي في ظهور ما يسمى بالنقد الجديد، الذي يركز على تحليل النص الأدبي بحد ذاته، واستغلال السياق التاريخي كأداة فقط لقراءة النصوص.

-**التحليل الدقيق للنص** :شجع منهج ديكارت النقاد على إجراء تحليل دقيق للنص الأدبي، بدءًا من الشكل إلى المعنى، والعكس.

-**الاهتمام بالبنية** :أدى التركيز على المنطق والتحليل إلى اهتمام متزايد ببنية النص الأدبي، وكيفية تفاعل العناصر المختلفة فيه.

-**التعددية في التفسيرات** :على الرغم من التركيز على اليقين، فإن المنهج الديكارتي شجع على وجود تفسيرات متعددة للنص الواحد، طالما كانت مبنية على أدلة منطقية.(6)

لم تسلم فلسفة ديكارت على أهميتها من الانتقاد، وتمثلت أهم تلك الانتقادات في:

-**تجاهل السياق** ينتقد بعض النقاد المنهج الديكارتي لتجاهله السياق الثقافي الذي أنتج النص الأدبي.

-**تجاهل الأبعاد الاجتماعية والتاريخية للمعرفة** :يركز المنهج الديكارتي بشكل كبير على العقل الفردي، ويتجاهل دور العوامل الاجتماعية والتاريخية في تشكيل المعرفة.

-**يصعب تطبيق منهج ديكارت على جميع مجالات المعرفة** :يواجه المنهج الديكارتي صعوبة في تطبيقه على مجالات مثل العلوم الإنسانية، حيث لا يمكن تطبيق القواعد الرياضية بدقة.

-**التركيز الزائد على الشكل** :يرى البعض أن التركيز على الشكل والبنية على حساب المعنى يؤدي إلى تحليل جاف وميكانيكي.

-**صعوبة تحقيق اليقين** :لا يزال هناك جدل حول إمكانية الوصول إلى يقين مطلق في تفسير النصوص الأدبية.(7)

ورغم هذه الانتقادات، لا يمكن إنكار أن المنهج الديكارتي قد ترك بصمة واضحة على تطور النقد الأدبي. فمن خلال الشك المنهجي والتحليل المنطقي، قدم ديكارت أدوات قيمة للنقاد لفهم النصوص الأدبية بشكل أعمق وأشمل كانت وراء ظهور المناهج النقدية الحداثية. وقد انتقلت فلسفة الشك الديكارتية

إلى الوطن العربي مع طه حسين الذي أعاد قراءة الشعر الجاهلي في تلك الحاضنة المعرفية فخلص إلى نتائج خلخلت مسار النقد العربي.

هوامش المحاضرة: